

## أغاني ترقيص الأطفال عند العرب

### منذ الجاهلية حتى العصر الأموي

« أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي » محاولة لدراسة نوع من أنواع التراث الشعبي العربي ، كتبها الاستاذ أحمد أبو سعد في مؤلف بهذا العنوان . وقد طلبت « الآداب » الى المؤلف ان يحدث قراءها عن موضوعه وخطته التي التزمها في دراسته والثمرات التي يمكن ان يجنيها قارئ كتابه .

وعلى وجه اليقين ، مخطئا استعماريًا يهدف الى « الطمس المخطط على مساهمات شعوب القارات الثلاث في الحضارة العالمية ، وتأكيد النظرات المنصرية حول خصائص « العقل الآري » وانفراده بانتاج الحضارة دون العقول الأخرى » فلست أبرء الذين انجرفوا بتيارها من فقدان عملية الجمع المستقصي لواد دراساتهم ، وعدم قيامهم بالاستقراء الكامل لنصوصها ، أو أخذهم بالنظرية الأحادية الجانب في تحليل الظواهر .

ومهما يكن الامر فليس من الكفر القول : « ان أوربة التسهات العالمي يمكن ان تجابه فقط عندما يتم الكشف عن المزيد من مآثر الشعوب غير الأوروبية » بل القيام بمثل هذا الامر هو واجب هذه الشعوب التي تطمح الى أن تزيل التشكيك في قدراتها الذاتية على التطور ، وتحاول تأكيد شخصيتها واسهامها الفعلي في صنع التاريخ الحضاري للبشر . وهذا ما جرت فعله في هذا الكتاب ، وهو يشبه ما فعلته منذ سنوات في دفاعي عن وجود القصة في الأدب العربي ، ووجودها بغزارة ، وبالصورة نفسها التي وجدت عليها عند الغربيين .

جرت قبلي محاولتان في تقديم أغاني الترقيص التي قراء العربية ، ولكن صاحبيهما لم يفيدا من مناهج البحث العلمي كما افدت ، فقرر الاول منهما عمله على جموع المادة ثم عرضها دون درس وتحليل وكرر الثاني ما فعله الاول بزيادة بضع أغنيات لم يقع عليها الآخر ، وظل عملهما يفتقر برغم فضيلة السبق التي احرزها الى

صلتني بالبحث ترجس منذ امد ليس بالقرب الى اهتمامي بالفولكلور العربي والأغاني العربية الفولكلورية ، وهو اهتمام نشأ عندي نتيجة الرغبة اولا في أن أقدم جانباً من التراث أهمله الدارسون من قبل ، مع انه الأكثر دلالة على حياة الأقدمين وأذواقهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ، وأنكب ثانياً عن الموضوعات التي اعتاد الباحثون ان يقصروا عليها مجال دراساتهم ، من مثل الأنواع التي كثر الكلام فيها واستفاض وزاد عن الحد ، او الأنواع التي انقطعت الصلة بينها وبين واقعا الذي نحياها ، واتجاوزها الى غيرها من الموضوعات التي تفيد في اغناء الحاضر بتجارب الماضي ، وتحقق الصلة الديالكتيكية بين القديم والجديد ، وتعيد من ثم التراث العربي الى موضعه من التراث العالمي . فلقد مضى وقت طويل وبعض الباحثين في بلادنا مقتنع بأن التراث الأدبي في اللغة العربية فقير في الانتاج الحسي المعبر عن جوهر الانسان وواقع عيشه اليومي ، وانه خال من فنسونه كثيرة من فنون القول التي ظنوا - وبعض الظن اثم - انها « وارد » أوروبة فقط .

ولعمري ان « أوربة » كل شيء، أي جعل أوروبة محور الحضارة منها يتبدى واليها تنتهي ، لهما احدى الظاهرات التي انتشرت في فترة من الفترات بين عدد من الدارسين الغربيين أثناء معالجتهم تراث الشعوب غير الأوروبية ، وبهنا تآزت تلك الحفنة من دارسينا « المتأوربين » في بلدان الشرق العربي .

واني وان كنت لا اذهب مع القائلين ان هذه الظاهرة كانت بمجملها،

النهج العلمي الذي ينتفع بجميع مناهج الدراسات الادبية فيصل بين دراسته وبين سائر العلوم والدراسات النفسية والاجتماعية ، ولا يكتفي بجمع المادة ويعرضها ، وانما يحدد طبيعتها ، ويصنفها وفق الاغراض ووفق جماعات الغناء والذين تغنى لهم ، ويعمد الى دراستها في اطار العادات ، ويفارنها بانماط من نوعها ظهرت في مناطق مختلفة نتيجة لظروف مشابهة ، ثم ينهي دراسته باشتقاق الظواهر والخصائص الكلية التي تنتج عنها .

وهذا ما أزعم لنفسي انني قمت به ، فقد قصدت في الباب الاول الى أن أبين في بحث شبه مقارن ما يقصد بالفناء للاطفال عند الامم كافة ، حدوده ، والمصطلحات التي أطلقت عليه ، والانواع التي تفرعت منه ، والمعاني التي اندرجت تحته ، ثم نصيب العرب الاقدمين من هذا الغناء ، وعرضت في االباب الثاني اغاني الترقيص العربية على مدى ثلاثة عصور ، ما غني منها للذكور وما غني للاناث بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الاموي ، وجاء الباب الثالث تحليلا لهذه الاغاني شمل دلالتها النفسية وتفسيرها الاجتماعي ، وعلاقتها بالظروف المعيشية التي كان يحياها سواد الشعب ، وقدم من خلالها البعد الصحيح لاحوال الناس وحقيقة مقوماتهم الفكرية ، وقيمتهم الاجتماعية والجمالية .

وقد تخلل الباب الاخير احاديث كثيرة عرضت اثناء البحث في الاسلوب والخصائص الفنية ، تناولت فيها الاغاني من زاوية الشكل أو البناء الخارجي ، ودرست الطريقة التي كانت تؤدي بها في ضوء علم نفس الموسيقى وعلم العروض ، ولم انس ان اشير الى علاقتها بالرجز ، وعلاقة الرجز بالفناء الفولكلوري او الشعبي ، كما رافق هذه الاحاديث كلام كثير على المفردات والقوافي وما لها من خصائص وعلاقة كل ذلك بالبيئة .

واذا كان لكل بحث نتيجة او ثمرات او استنتاجات فان نتائج بحثي وثمراته التي يمكن ان تجتثى منه تتمثل في عدة ظواهر منها : اشتغال التراث العربي على كنوز خبيثة وصور من التعبير يحسن أن تكون موضع عناية الدارسين ، بينها الاغاني التي كانت تغنى للاطفال ، وتشابه هذه الاغاني مع ما كان يغنى للاطفال عند سائر الشعوب ، ودورانها حول المعاني نفسها ، وهاتان الظاهرتان حملتني اولاهما على الخروج منها بنتيجة هي كون العرب لم يتخلفوا عن غيرهم في هذا اللون من الغناء وسموه الترقيص وميزوا بينه وبين الهدنة ، وجعلتني الثانية اتمكن من ان استنتج ما اسماه العلامة تايلور الوحدة الجوهرية للطبيعة البشرية ووحدة خطوط التطور في الثقافة الانسانية ، كما أفضت بي الى القول بعد ان قابلت بين هذه الاغاني التي كانت تغنى للاطفال عند العرب قديما واغانيتهم في زماننا واغاني الشعوب الاخرى ، ان التطور الروحي للانسان يتخذ انماطا شديدة التشابه في مختلف انحاء الارض وفي شتى أنواع المناخ وذلك بالرغم من الاختلاف البالغ في درجة التطور .

ومما لفتت انظار اليه هذه الدراسة كذلك ان العرب كان لهم جهود قديمة في ميدان جمع المأثورات الشعبية الخاصة ما كان يغنى للاطفال جعلتهم من رواده الاوائل في العالم ، وهو امر شهدت به مجموعة الاغاني التي اوردتها هنا ، والتي وجد بين العرب ، قبل ألف عام ، من افردها كتابا مستقلا وعددها فنا قائما بذاته ، وانهم بكراهيتهم للطفل ان ينوم وهو يبكي ، وتحبيذهم لتدليله وارقااصه والفناء له حتى يطيب نومه ، كما يستفاد من الاقوال التي جمعتها من مأثوراتهم لتأييد ذلك ، أقول انهم بهذا كانوا مدركين وبصورة واعية لاصول تربية الطفل واتباع الطرق التي تضمن له صفاء المزاج وارتياح القلب وهدهد الاعصاب وراحة البدن .

واني بالاستناد الى الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية وعلم المأثورات الشعبية أو الفولكلور قد توصلت خلال بحثي الى رأي مفاده ان هذا النوع من الغناء كانت له صفات الفولكلور الفئاني من حيث توارثه بالرؤية الشفوية ونسبه المجهول في بعض الاحيان وصفة المرونة فيه وقابليته للتعديل ، ومن حيث دلالاته على المجتمع وعلاقته بالظروف المعيشية التي كان يحياها سواد الناس وتعبيره اصدق تعبير عن نفسية الشعب وذوقه واخلاقه وعاداته وجملة الميزات التي توقف شخصيته القومية في ابعادها الحقيقية . كما اتضح لي من خلال درس مادته واستخراج مضامينها احتفاظ مجتمعنا حتى اليوم بكثير من النظم والعادات والتقاليد والتصورات التي كانت شائعة في الماضي من مثل سيادة القيم والعادات المتعلقة باليسادة والمجتمع الاسوي واستمرار بعض التقاليد والمعتقدات القديمة جاريا في استعمال قسم غير ضئيل من أبناء شعبنا في حياتهم اليومية على الرغم من استقرار نوع آخر من العلاقات واسلوب الحياة .

وقد وجدت لهذه الظاهرة ما يفسرها ، وهو ان زوال عصر ما قد لا يستوجب زوال تقاليده ، او ان التراث العربي تواصل وتبث بشات بيئته وجمود اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ولست أزعم في النهاية ان دراستي استكملت من جميع النواحي ، وذلك لسبب بسيط هو ان الدراسة الميدانية لم تكن ممكنة ، والتراث لم يسمح على الوجه الذي يقنع بامكانية الاطاحة به ، واكثر من نصف آثاره لا يزال غير مطبوع ، ومع ذلك ربما جاز لي القول انها استكملت بالقدر الذي سمحت به المصادر ، وكان فيها اسهام علمي متواضع في ضبط التاريخ الاجتماعي للمراحل الاولى من المجتمع البشري او اضاءة الحظبة الزمنية التي تتصدى لها ، وانها قد تفري باحثا آخر بدراسة مثل هذا النوع من التراث الشعبي المغمور الذي يجب ان يستكمل في سائر العصور ، وتصحح ما كان قد استقصر في نفوس كثرة الباحثين من ان العرب لم يخلفوا آثارا كهذه ، او ان آثارهم التي عبروا بها عن انفسهم على هذا النحو لم تصل الينا .

وربما كان فيها ، على الصعيد القومي ، اعانة ملحوظة على ابراز ماضي العرب النفسي والوجداني والتعرف على ألوان التعبير عندهم وكيفية تصوير ادبهم الشعبي لجلالات الجند والكرامية ومجالات العمل ومجالات الفكاهة وغيرها من خطوط نسيجهم الحضاري .

ولا اعتقد انها من الناحية العالمية غير ذات فائدة ، فهي ربما ادت الى زيادة معلوماتنا عن الانسان عامة ، وزادت القوة التي تمكنا من فهم القدرات البيولوجية والوراثية لديه ، وفهم طبيعته ومحاولة ايجاد أسس علمية ومنهجية تكون في متناوله عند الافتضاء ، وقد يكون فيها اسهام في اكتشاف الجزات المشتركة بين الشعوب لتكون أداة تعارف وتقارب بينها .

بيروت

صدر حديثا عن دار الطبيعة	
موضوعات من تجربة اشورة	✳
منير شفيق	
حركة رشيد عالي الكيلاني	✳
اسماعيل احمد ياغي	
التنظيم الثوري الحديث	✳
العفيف الاخضر	
التطور اللارسمائي	✳
عزيز السيد جاسم	
من اجل احباط الحل الاستسلامي	✳
منظمة العمل الشيوعي	
دار الطبيعة - ص ١١١٨١٣ ب - بيروت	